

الشيخ أحمد الطيب والتصوف الفلسفي

الكاتب

طلحة المسير



أحمد الطيب والتصوف الفلسفي

طلحة المسير

اتسم النتاج العلمي لشيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب . على قلته . بالانزواء في قالب أكاديمي، يلبي الاحتياجات الضرورية لعمله في البيئة الجامعية، ويخاطب شريحة صغيرة جدًّا ممن تتطلب البيئة الجامعية مخاطبتهم.

ورغم أنه تولى عدة مناصب ذات صبغة جماهيرية؛ مثل الإفتاء، ثم رئاسة جامعة الأزهر، ثم مشيخة الأزهر، إلا أن هذا العزوف عن التوسع في الإنتاج العلمي وملاحقة الأحداث ظل هو السمة البارزة في شخصيته.

وكون الشخص مسهبًا في الإنتاج العلمي أو مقتصدًا فيه، ليس هو المعيار الحقيقي الذي يؤثر في جهود الشخص وأعماله.

لكن العجيب أن هذا النتاج القليل للدكتور أحمد الطيب ظهر فيه ولع واهتمام بشخصية من الشخصيات التاريخية، التي كان لها أثر كبير في كثير من الانحرافات الخطيرة التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية.

إن الدكتور أحمد الطيب اهتم بشخصية ابن عربي اهتمامًا ملحوظًا، وبرز هذا الاهتمام في بحوثه بروزًا واضحًا؛ فقد اهتم بدراسة ابن عربي سواء بتأليف البحوث عنه أو ترجمتها من اللغات الأوروبية؛ فنجد مثلًا للدكتور أحمد الطيب هذه العناوين لدراسات ألفها أو ترجمها:

1- مؤلفات ابن عربي تاريخها وتصنيفها.

2- دراسات الفرنسيين عن ابن عربي.

3- ابن عربي في أروقة الجامعات المصرية.

4- الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي.

وإذا قلبنا صفحات ترجمته لكتاب "الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي" الذي ألفه بالفرنسية "علي شودكيفيتش"، نجده يبدي الإعجاب الشديد بالنموذج الفكري عند ابن عربي، مدعيًا أن قراءة ابن عربي تحتاج إلى ما يسميه عمقًا في الفهم والعلم.

يقول د.أحمد الطيب عن ابن عربي في مقدمة ترجمته لهذا الكتاب: (قد تتفق أيها القارئ المدقق فيما يقصه عليك ابن عربي وقد تختلف معه جذريًّا أو جزئيًّا، بدءًا من العناوين التي يبدأ منها أنظاره العرفانية، وانتهاء بما يريد أن يقوله للسالك المتذوق، في صراحة أحيانًا وفي إشارة أو رمز في أغلب الأحيان.

لكن الذي لا أظن أحدًا يمكن أن يتمارى فيه هو أن من يلقي نفسه في خضم تراث ابن عربي الذي تمتزج فيه علوم العقل والنقل والذوق امتزاجًا عجيبًا، لا يسعه إلا الاعتراف ـ مختارًا أو مكرهًا ـ بأن هاهنا مستوى من المعرفة ـ كائنًا ما كان موقفنا منه ـ يفوق كل طاقات البحث والدرس، ويقع وراء كل الحدود التي وقف عندها جهابذة العلماء والمفكرين المسلمين، وهذه في حد ذاتها معضلة من معضلات تراث ابن عربي؛ إذ الصبر على فهم هذا التراث، ومحاولة ترتيبه، وربط خوافيه بقوادمه، والسيطرة على النتائج المستخلصة، يتطلب عمرًا مديدًا، وجهدًا شاقًّا لا يطيقه إلا الأفذاذ من علماء العصر الحديث)[1].

والكتاب يتعامل مع كثير من عبارات ابن عربي وفلاسفة الصوفية بناء على أساسين:

1- الإقرار بصحة نسبة أكثر هذه العبارات: حيث ترد هذه العبارات بصيغ الجزم في نسبتها لهم، وليس كما كان يفعل البعض من إنكار كل ما تظهر مخالفته للشريعة، وادعاء أن ذلك منحول عليهم.

2- تمرير هذه العبارات: مهما بلغت درجة مصادمتها للشريعة، واستخفافها بأصول الدين.

فمثلًا يصطدم قارئ ترجمة د.أحمد الطيب لهذا الكتاب أول ما يصطدم بديباجة من عبارات ابن عربي افتُتح بها الكتاب دون أدنى تعليق، وهي: (قال الشيخ الأكبر، سلطان العارفين بالله، محيي الدين بن العربي الحاتمي: ورد في الخبر الصحيح في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(إن الله جميل يحب الجمال)** وهو تعالى صانع العالم وأوجده على صورته؛ فالعالم كله في غاية الجمال ما فيه شيء من القبح، بل قد جمع الله له الحسن كله والجمال ...، فما رأى العارفون فيه إلا صورة الحق ...، فهو المتجلي في كل وجه، والمطلوب في كل آية، والمنظور إليه بكل عين، والمعبود في كل معبود ...، فجميع العالم له مصل، وإليه ساجد، وبحمده مسبح، فالألسنة به ناطقة، والقلوب به هائمة عاشقة)[2]!

والكتاب مليء بكثير من التعبيرات التي تناقض كثيرًا من أمور الإسلام، والتي لا مبرر لها عند القوم إلا زعمهم أن اللغة لا تحيط بالمعاني الجليلة، ومن ذلك:

- قول أحد فلاسفة التصوف: (جعلني متصفًا بصفاته، ثم جعلني متحدًّا بذاته، ثم رأيت نفسي كأني هو، ثم أفقت من ذلك، ونزلت من مقام الربوبية إلى مقام العبودية)[3].

- وقول المؤلف: (إن ابن عربي يبين بعد ذلك أن النبوة بالمعنى الخاص وهي نبوة التشريع إذا كانت تنتهي وتنقطع؛ فإن النبوة العامة وهي التي لا تشريع فيها باقية دون انقطاع، والنبوة بالمعنى العام هي ما يعبر عنها عادة باصطلاح الولاية)[1].

---

(1) الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، تأليف علي شودكيفيتش، ترجمة د.أحمد الطيب، دار القبة الزرقاء، المغرب، ص(3).

(2) المصدر السابق، ص(8).

(3) المصدر السابق، ص(49).

- وقوله كذلك: (ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الرهبان ممن اعتزلوا الناس وانقطعوا في الجبال لعبادة ربهم، وأنه قال في شأنهم: (**ذروهم وما انقطعوا إليه**)، وهنا يستنبط ابن عربي أن تبليغ الدعوة رغم أنه من الواجبات المفروضة على المؤمنين، إلا أنه غير مطلوب في مثل حالة الرهبان هذه، مما يدل فيما يقول ابن عربي على أن هؤلاء الرهبان كانوا على بينة من أمر ربهم)[2].

- ونشر الخزعبلات التي تفسر أحوال بعض المرتدين عن الإسلام، بزعم أن هؤلاء المرتدين أولياء غلب عليهم حال نبي من الأنبياء السابقين، كما قال المؤلف: (ثمة أنموذج آخر للولي العيسوي يمكن أن نتعرف عليه في يسر وسهولة من خلال شخصية عين القضاة الهمذاني، الذي يشبه من وجوه عديدة أنموذج الحلاج أيضًا، لقد كان عين القضاة تلميذًا لأحمد الغزالي، واتهم بالزندقة ودعوى النبوة، وحكم عليه بالموت شنقًا، وقطعت رأسه بهمذان سنة 525 / 1131، وكان عمره آنذاك ثلاثة وثلاثين عامًا، وهو العمر الذي رُفع فيه المسيح إلى السماء، وهو أيضًا عمر أهل الجنة في الجنة)[3].

- ومع أن دعوى حب النبي صلى الله عليه وسلم هي أساس كثير من مبتدعات هؤلاء القوم، إلا أن استمراءهم لإطلاق الألفاظ على عواهنها، يجعل من السائغ عندهم إساءة الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، كما نقل المؤلف عن أحدهم: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا على وسط لجة البحر متربعًا سكران)[4].

- وعقلية الخرافة هي الجامع لشطحات الكِتاب الكثيرة؛ مثل ما نقله عن ابن عربي من قوله: (وشاهدت جميع الأنبياء كلهم؛ من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وأشهدني الله تعالى المؤمنين به كلهم، حتى ما بقي منهم أحد ممن كان ويكون إلى يوم القيامة خاصهم وعامهم، ورأيت مراتب الجماعة كلها، فعلمت أقدارهم)[5].

وكذلك قول بعضهم: (كان شيخنا ابن عربي متمكنًا من الاجتماع بروح من يشاء من الأنبياء والأولياء الماضين على ثلاثة أنحاء؛ إن شاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسدًا في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية التي كانت له في حياته الدنيا، وإن شاء الله أحضره في نومه، وإن شاء انسلخ عن هيكله واجتمع به)[6].

---

(1) المصدر السابق، ص(57).
(2) المصدر السابق، ص(81).
(3) المصدر السابق، ص(84).
(4) المصدر السابق، ص(48).
(5) المصدر السابق، ص(25).
(6) المصدر السابق.

ومع كل ذلك وأكثر منه فإن الدكتور أحمد الطيب يقدم هذا النتاج بأريحية قائلًا: (وأكبر الظن أيضًا أن موقف التسليم أو التوقف فيما يشكل من آراء ابن عربي هو أقرب إلى المنهج العلمي والضمير الديني منه إلى موقف التكفير ونزع ربقة الدين من عنقه)[1]، ويوضح الدكتور أحمد الطيب الأسباب التي تؤدي إلى التوقف في عبارات ابن عربي الغامضة وعدم تكفيره ببعضها، ومنها أن ابن عربي يشهد الشهادتين، ويقر بأركان الإسلام، و(قصور اللغة، وعجز ألفاظها، وعدم وفائها بالإفصاح عن علوم الأسرار والمخاطبات والمكاشفات، ومن ثم فلا مفر من الرمز والتلغيز، والإشارة والتلميح، بقدر الوسع والطاقة)[2].

ثم يتحسر الدكتور أحمد الطيب على تفريط الأمة في تراث من يصفه بالملهم العملاق ابن عربي قائلًا: (كان من المأمول حسب المنطق الطبيعي للأشياء، أن يتعرف الغرب على قممنا الروحية من خلالنا، ومن ثمرات أقلامنا نحن الشرقيين الناطقين باللغة العربية، وأن يفيدوا في فهم مذاهبهم الروحية من كتابات أبناء هذا التراث، ومن أبحاثهم وتحليلاتهم، أما وقد انعكست الأمور، فإن هذا الكتاب ـ وبعيدًا كل البعد عن التعصب للشيخ الأكبر أو التعصب ضده ـ لاشك سيغدو في يد القارئ مصباحًا قوي الضوء، ينكشف به كثير مما كان مجهولًا من قبل في تراث ابن عربي، سواء انتهى قارئ هذا الكتاب في ترجمته العربية إلى شيء من حسن الظن بابن عربي، أو انتهى إلى شيء من سوء الظن به، فالمهم في الحالين هو حسن الفهم لما يقوله هذا الملهم العملاق)[3].

العلمانيون وابن عربي وأحمد الطيب:

العجيب في ترجمة الدكتور أحمد الطيب لكتاب "الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي" أنها طبعت في أوائل طبعاتها في منشورات المجلس الأعلى للثقافة، في عهد وزيرها فاروق حسني، الذي اشتهر بكثير من مواقفه التي تصب في خانة العداء للدين الإسلامي، والذي نُشرت في عهده كثير من الكتب التي تستهزئ بالإسلام والمسلمين.

وقد اتخذ العلمانيون هذه الطبعة ستارًا لدعوتهم الإلحادية التي تعادي الإسلام أشد العداء؛ حيث كتب أحمد عبد المعطي حجازي، مقالًا في جريدة الأهرام، وهي أشهر جريدة مصرية، بتاريخ 6 محرم 1423هـ، 20 مارس 2002م، عقب تولي د.أحمد الطيب منصب الإفتاء مباشرة يقول فيه: (القرار الجمهوري الذي صدر بتعيين مفت جديد لم أتشرف بمعرفته حتى أعلق عليه ما ينبض به قلبي من آمال، ولكني وجدت له في منشورات المجلس الأعلى للثقافة ترجمة ممتعة للبحث الممتع الذي كتبه المستعرب

---

(1) المصدر السابق، ص(5).

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق، ص(6).

الفرنسي المسلم "ميشيل شوركيفتش" عن ابن عربي، وسماه الولاية؛ لأنه يكشف فيه عن رأي المتصوف الأندلسي في وراثة الأولياء للأنبياء؛ إذ الدين عند ابن عربي واحد، وإن تعددت صوره بتعدد الشرائع التي لا تختلف إلا كما تختلف طرق تلتقي عند غاية واحدة.

ومن هنا قول ابن عربي في قصيدته البديعة:

ألا يا حمامــات الأراكة والبــان ترفقن لا تضعفن بالشجو أشجاني

لقد صار قلبي قابلًا كــل صــورة فمــرعى لغزلان، ودير لرهبــان

وبيــــت لأوثان، وكعبـــة طائف وألـــوان توراة، ومصحـف قرآن

أديــن بديــن الحب أنى توجهت ركائبــه، فالحب دينــي وإيمانــي

ثم انظر في كلمته الرائعة التي يقول فيها: إن الحب في جوهره عاطفة واحدة، حب العابد لربه وحب العاشق لمعشوقته:

لنا أسوة في بشر هند وأختها وقيس وليلي، ثم مي وغيلان

هذه الترجمة، ترجمة الدكتور أحمد الطيب لكتاب "شوركيفتش" أشاعت في نفسي قدرًا من الطمأنينة؛ لأنها دلتني على أن المفتي الجديد عالم فقيه واسع المعرفة بالتراث العربي الإسلامي، ويتقن الفرنسية كما يتقن لغته، ويختار للترجمة بحثًا لا يختاره إلا رجل ذو عقل راجح، وقلب فياض بمحبة الآخرين، والقدرة علي فهمهم والتعاطف معهم، فالذي يحب ابن عربي لابد أن يكون شبيهًا به**!**).

ورغم أن هذا الكلام منشور منذ قرابة عشر سنوات، وما يزال منشورًا على الشبكة العنكبوتية، إلا أن المتابع لا يجد أي رد من الدكتور أحمد الطيب على هذا الكلام الخطير.